فِرَارٌ

«أكتبُ كُتُبِي كما تُصْنَعُ لوحةٌ»
«كلود سيمون»

وقفتُ في الشرفةِ أتأملُ إشراقةَ الصبح و أسقي الزرع فلمحتُ أحدَهم من بعيدٍ في الشرفة المقابلةِ تماماً لشرفتي لا يفصلني عنها سوى عرض الشارع يسقي الزرع مبتسما ومحدّقاً فِيَّ .. ابتسمتُ من تلك الصدفة التي جمعتنا ،انزويتُ للداخل وأغلقتُ النافذةَ . أتممتُ فطوري واحتسيت قهوتي ثم نزلت إلى الشارع لأستقل عربة إلى المستشفى حيث كانت ترقد – هي - مريضةً منذ أيامٍ فوجدتُ رجلاً منتظراً مثلي مشيراً للعرباتِ ومستفسراً عن عنوان المستشفى. على الرصيفِ الموازي لمحطة «الباص» كان هناك بائعٌ للجرائدِ فوقفتُ أمامَه مشيراً إلى جريدتي المفضَّلة لكنه لم يعبأ كثيرا وغير مبالٍ ناولني إحدى الدورياتِ الأدبيةِ .. انتابتني دهشةٌ بالغةٌ فلم أكن يوما من هواة الأدب ولا من قرَّاءِ الشِّعرِ وقبل أن اعترض جاء رجل ووقف قُبالتي فناوله البائع النسخة الثانية من نفس الدورية الأدبية . ابتسمتُ وأنا أحدِّقُ في الغلاف المصقول بيده وأمسح الكلماتِ بعَيْنَيَّ)القصة القصيرة وأسئلة الهَمّ الوجوديّ - قراءة في قصة فرار. تبادلنا أنا والرجل نظرات تحوي ودَّاً سطحياً وتوجساً عميقاً بينما رحتُ أعدو مسرعا متجها الى حيث كنت واقفا وأنا أردد في نفسي : يبدو أنه يوم مصادفاتك العجيب . توقفت العربة فصعدت وصعد الرجل برُفقتي ، ذكرتُ للسائق اسم المستشفى فهالني أنَّ الرجل يذكرُله نفس الاسم ويوصيه كثيرا أن يُنزلَه أمامَ باب المستشفى ..!

رَنَتْ على وجهي ابتسامةٌ خافتةٌ محاولاً التودُّدَ للرجل فطريقُنَا واحدٌ ووجهتُنا واحدةٌ لكنه واجهني بتجهمٍ أوقفَ كلَّ محاولاتي ووأدَ تودددي إليه تماماً فتركتُه مولّياً دخلتُ المستشفى وسألتُ عن رقم الغرفة وأخبرتهم عن اسم المريضة ثلاثيا فوجدتُ الرجلَ وقد هَرِمَ كثيراً يخطو متابّطاً عكازه كما كان يضع على عينيه نظارةً طبيةً وقد وَهَنَ عظمُهُ كثيرا رحتُ أُخَمِّنُ أن الفرقَ بين عمري وعمرِهِ يتعدى ثلاثين عاماً على أكثر تقديري فجفلت كثيرا وامتلأت رببة من مرور السنوات بتلك

السرعة الفائقة كان الرجل مثلي تماما يسأل عن رقم الغرفة ويذكر اسم المريضة رباعيا بل ويزيد فيذكر لقب العائلة ..!

ارتبكت كثيراً وساءني أكثر هذا الوجود الممتلئ بهذه الصدف الغائمة ووقعتُ في حيرة شديدة من كل ما يحدث وتواطؤ كلُّ هذه الصُّدَف عَلَيَّ خاصة وأنا متيقن تماما أنني لا أعرف هذا الرجل من قبل ولم أره في سابق أيامي كلها يزورها أو تذهب هي لزيارته وقفت عند الباب لأدخل عليها فوجدت رجلا هو نفسه الرجل السابق يصر على الدخول إلى غرفتها بعناد عجيب عندما دخلتُ كانت شبهَ عاريةٍ تماماً إلا من النَّذْرِ اليسيرِ الذي يسترها بينما كانت الممرضات يَنْزَعْنَ عنها ملابسَها المبتلة من أثر البول الذي تسرب دون إرادةٍ منها ففوجئت به وقد تخطَّاني وتبرَّع لمساعدتهم . زعقتُ فيه دون وعيٍ وقد فقدتُ قدرتي على التحكُّمِ بأعصابي : كيف تسمح لنفسك يا رجل أن تدخل على أمّي وهى عاريةٌ وأنت رجلٌ غريبٌ ؟؟ هل جننتَ يا رجل.. ؟؟

فأجابني متجهّما : إن هذه الأمَّ- التي تقول عنها إنها أمك – امرأةٌ عاهرةٌ قد رأى جسَدَهَا مئاتُ الرجال أما أنا فلا يحقُّ لك أن تصيح فيَّ هكذا؟؟ ومن الآن .. فأنا لستُ أبوك.. ؟؟

تملكتني دهشةٌ ومرارة،إذ كيف أقضي العمر كلَّه أتوهَّم بأنَّها عفيفةٌ طاهرةٌ وأنادي رجلاً غريباً بكلمة أبي وأنا لا أملك القدرةَ على الإثبات أو النفي ؟ أضاع العمر عبثا وأنا أركض صوب ما لا أملكه ولا أستطيع التيقنَ المطلقَ من حقيقته ؟؟ اقتربتُ منها وجلاً وسألتها : أمي هل أنت فعلا داعرةٌ ضاجَعَتْ رجالاً كُثُرٌوهل هذا الواقف في تجهُّمٍ هو أبي صِدقاً أم أن أبي رجلٌ آخرٌغيرُهُ ؟؟

ردَّتْ عليَّ محاذرةً النظرَ في عَيْنَيَّ و لا مباليةً صرختْ : من أنت.. ؟؟

أنا لا أعرفكَ فَلِمَ تقتحمُ عليَّ الغرفةَ هكذا.. ؟؟

ثم أشارت لي لأبتعدَ وأتراجع للوراء. راحتْ تومِئُ له وتناديه فجاء واقتربَ منها وراح يقبّلها بشهوةٍ ومجونٍ كان يجوبُ بشفتيه في حافة شفتَيْهَا السُّفلى بينما كنت انتفضُ كمالك الحزين حائراً على حافة شفتها العُليا..!

أدركتُ أنني ليس لي مكانٌ بينهما فتركتُ لهما المكانَ بينما كنتُ أتابع حركةَ الجسدَيْنِ المتعانقَيْنِ والغارقَيْنِ في فُحْشٍ حسيّ واضحٍ ودموعٍ وجدٍ حارقة . ومشيتُ خطواتٍ خارج باب المستشفي ثم أسرعتُ الخُطى حين سمعتُهم كلَّهم ينادون عليَّ: يا ابنَ العاهرة .. انتظرْ ظللتُ أفرُّ من البوابات التي تصادفُني ، ومن الشوارع التي يقتحمُني صخبُها ومِن الجالسِين متلاصقِين على مقاعدِ العربةِ حتَّى وصلتُ البيتَ

فدخلتُ وأغلقتُ الباب من الداخل جيدا. أخذتُ نفساً عميقا ثم جريتُ صوبَ النافذةِ و رحتُ أنظر من خلفِ الستائر المتربة فرأيتُهم جميعا قد تجمعوا أسفل النافذة وراحوا يقذفونني بأبشع الشتائم وينادونني بأقذع الشتائم فأغلقت النافذة وأسدلت الستائر جيداً. صنعتُ لنفسي كوباً من الشاي باللبن ورحتُ لا مباليا أتصفح الدورية الأدبية الملقاة واقرأُ مستفيضاً عن أشياء لا أفهمها ولا تعني لي شيئا بينما صوتُهم في الخارج قد خَفَتَ كثيرا حتى تلاشى . حاولت النوم لكن الأرق انتابني من جديد فنهضت، ارتديت ملابسي وخرجت .. جلست في المقهى واضعا ساقاً على ساقٍ ومستندا بظهري قليلا للوراء فرأيت الكثير من البشر وقد ارتدُوا نفسَ ملابسي واضعِين ساقاً على ساقٍ كهيئتي وكلهم بلا استثناء يقلِّبون صفحاتِ نفس العدد من تلك الدورية الأدبية ثم لا مبالِين مثلي يلقونَها جانباً على مقاعدهم الشاغرة . و بينما كنتُ أَهُمُّ بالفرار من نظراتِهم المثبَّتة عليَّ استوقفني أحدُهم وسألني ..هل أنت هو.. ؟؟ هذا المطبوع اسمه على غلاف الدوريَّة.. ؟؟
لم أعرف بمَ أجيبُه ..؟
سوى أنه قال مغتبطا : فرحتُ كثيرا بهذه الصدفة التي جمعتني برجلٍ عظيمٍ مثلِك ثم أخرجَ من جيبهِ هاتفَهُ وبدا فَرِحَاً مغتبطاً في التقاط الصُّوَرِ لنا سوِيَّاً بينما انضمَّ إلينا في الصُّوَرِ الكثيرُ من روَّادِ المَقْهى الدائمِين وبعضاً من النساءِ العابراتِ كما أوقفَ النادلُ خدمتَهُ للزبائنِ وانضمَّ إلينا مسرعاً وبعدها أومأ الرجل لنادلِ المقهى فَرِحَاً ، قائلاً بحماسةٍ فائقةٍ : حساب - ما أخذه هذا الرجلُ من شايٍ وقهوةٍ ومشروباتٍ أخرى- عندي .